الرومانسية
نشأتها وملامحها

دكتور

صفوت زيد

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية

بإيتاى البارود

جامعة الأزهر

مفهوم الرومانسية

الرومانسية .. مصطلح أطلقه الكلاسيكيون على معارضيهم ، ممن دعوا إلى أدب جديد ، مخالف فى طبيعته لما تواضعوا عليه . (١)

ويبدوا أن الكلاسيكيين ، أرادوا الاستهانة ، أو التقليل من شأن ذلك الأدب المخالف لأدبهم ، فنعتوه بالرومانسية ... لأن هذه النعت لا يصدق كثيرا على الأدب الرومانسى الجديد ، بسماته التى عرفت عنه ، وذاعت عن أصحابه .

إذ أن هذا المصطلح يرجع أصله إلى كلمة " رومانسى " التى تدل على قصص المخاطرة ، والمغامرات شعرا ونثراً .(٢) ولهذا لم يعرفوا للرومانسية معنى فى أول الأمر نتيجة للتناقض الواضح بين ما يصدرون عنه من أدب ، وبين هذا المصطلح .

وقد عبر كثير من رواد الحركة الجديدة ، عن حيرتهم وارتيابهم إزاء هذا الأمر ، حتى إنهم لم يتمكنوا من وضع تعريف محدد لها .(٣)

وربما يرجع السبب فى ذلك إلى اختلاف الدلالة من مكان إلى آخر ومن جيل إلى جيل .

فقد كانت الكلمة فى القرن السابع عشر تعنى فى الأدب الإنجليزى ، كل الأشياء المرتبطة بالخيال الجامح ، والغراميات الملتهبة .

---

(١) انظر : معالم النقد الأدبى د. عبد الرحمن عثمان ، ص ١٨٧.

(٢) السابق والصفحة .

(٣) انظر فى تفصيل ذلك : أدباء الرومانتيكية الفرنسية د. محمد غلاب ، ص ١ وما يليها .

أما فى القرن الثامن عشر فقد حظيت فى أوربا جميعها ، بشئ من التقدير والاحترام .. إذ أصبحت تطلق مرتبطة بالتأمل الفلسفى العميق فى الكون والحياة والطبيعة ، مشوبا بنزعة من الحزن والأسى .

وفى القرن التاسع عشر ، تطور مفهوم الكلمة ، فأصبحت تعنى التغنى بجمال الطبيعة ، والبعد عن كل مظاهر التعقيد الصناعى ، والتوتر الحضارى ، الذى فى أعقاب الثورة الصناعية .(١)

والرومانسية فى أخص خصائصها : حركة أدبية ثائرة على التقاليد الأدبية القديمة ... تلك التقاليد التى استقرت فى العرف الأدبى ، وكان لها بفضل تمكنها عند النقاد والمبدعين لون من القداسة ، تحول بمرور الزمن ، إلى قواعد ثابتة ، ولا يحق لأحد الخروج عن إطارها أو اختراق حواجزها .

فجاءت الرومانسية ثورة على تلك التقاليد ، محطمة كل الحواجز والسدود ، وانطلقت تؤسس لنفسها مذهبا جديداً يرضى حاجة المبدعين ، وحاجة الجمهور على السواء .

ونظراً للحيرة التى أخذ بها روادها من أول الأمر ، لم يتمكنوا من وضع تعريف جامع مانع لها ... حتى قال بعضهم : إنه من الصعب إيجاد تعريف شامل لها يرتبط بمدة تاريخية معينة ، أو منطقة جغرافية محددة وإزاء ذلك اعتبروها رد فعل متعارض مع الكلاسيكية .

---

(١) انظر : المذاهب الأدبية من الكلاسيكية الى العبثية د. نبيل راغب ، ص ٢٤ وما يليها.

فانطلقوا يبدعون فى كل بيئة ، معبرين عن واقعهم المعاش ، وحياتهم الخاصة دون أن يقطع طريقهم عائق ، أو يحول بينهم وبين التعبير عن مكنون نفوسهم حاجز .

فجاءت إبداعاتهم معبأة بوهج تجاربهم الخاصة ، فى تفردها وتميزها . ولهذا رأينا نقادنا العرب ، لا يصدرون عن خطة واحدة ، فى إيضاح شعار المذهب أو حدوده .. بل ذهب كل واحد منهم يطوف حول سمة من سماته ، أو مجموعة من تلك السمات ، فيجعلها شعاراً للمذهب ، ودلالة عليه

فقد وجدنا منهم من يرى أن الرومانسية هى : تغليب الخيال على العقل ، والاهتمام باللغة اهتماماً خاصا يتسم بالنظرة الجمالية .. وليس معناها الاستسلام للوهم ، أو للنزعة العاطفية المسرفة (١).

ولعله يتحدث عما يمكن أن تطلق عليه " الرومانسية المعدلة" التى ظهرت فى مطالع القرن العشرين ، ودعت إلى ضرورة الربط بين العاطفة التلقائية ، والإرادة الواعية ، فى وحدة فكرية وعاطفية لا تنفصم (٢) .

ولا شك أن مدرسة الديوان ، تأثرت بهذه الدعوة ، وصدرت عنها فى نتاجها الشعرى على ما سنبين فيما بعد .

كما رأينا من النقاد من يرى أنها تعنى تصوير الحاضر عن طريق تقديم ثمار أدبية ، جديرة بأن ترتضيها الشعوب ، وتروقها فى كل ما يتعلق بتاريخها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، فى أوضاعها الراهنة (٣) .

---

(١) الأهرام فى ١٩٨٠/٣/٣١ والرأى للدكتور عبد الفتاح الديدى .

(٢) انظر : المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية د. نبيل راغب ص٣٤ .

(٣) أدباء الرومانتيكية الفرنسية د. محمد غلاب ص٦ .

ولن يتأتى ذلك ، إلا إذا خلع الأدبـــاء أزيـــاء القدمـــاء ، واســـتخدموا تجاربهم من واقعهم وبيئتهم ، فى مكانها وزمانها المعاصر .

وهذا ما فعلته " الرومانسية " بالفعل فى النماذج الجديدة الجيدة ، التـــى قدمها الرواد ، ملبين حاجة الناس فى عصرهم ، دون انزواء أو انعزال.

على أنه من الجدير بالملاحظة أن الناقد فى رؤيته تلك .. لم يتكئ على خاصية محددة ، وضح أمرها فى نتاج المذهب ، وإنما تحدث عن المنطلـــق العام ، الذى اتكأ عليه " الرومانسيون" فى توجههم نحو الجديـــد ، المخـــالف تماما لكل ما هو قديم .

فقد كان " الكلاسيكيون " يستلهمون آداب اليونان والرومان القدمـــاء ، فيما يقدمون للناس .. فجاء "الرومانسيون" مستلهمين نفوسهم ، وعصورهم ، وحياتهم ، وبيئاتهم .

ولهذا نرى أفضل ما يمكن أن تقدم به " الرومانسية " إلى النـــاس ، أن نعتبرها كما اعتبرها الأوربيون " رد فعل متعـــارض مـــع الكلاســـيكية وأن خير تعريف لها هو الرجوع إلى قواعد الكلاسيكية ، وجمع أضدادها واتخـــاذ ذلك تعريفا لها " (١).

لأنك إذا قلبت مبادئ الكلاسيكية حصلت لديـــك فكـــرة جيـــدة عـــن الرومانسية .. هذا المذهب الذى صارع المذهب الآخـــر الســـابق عليـــه ، وصرعه بعامل الزمن ، وتطور الحياة ، وما اتسم به من جمود وتوقف (٢).

---

(١) السابق ص٥ .

(٢) انظر : الخلاصة فى مذاهب الأدب الغربى د. على جواد الطاهر ص١٧ .

ويحلو للدكتور عبد الرحمن عثمان أن يؤكد على ثورية " الرومانسية " وتمردها عندما يعلن أنها مذهب التجديد فـــى الأغـــراض والموضوعـــات ، والاهتمام بحالات النفس الفردية ، فى آلامـــــها وآمالـــها ، والثـــورة علـــى الموضوعات اللغوية ، وعلى الوقوف عند المسموع عن النحاة ، وأنها بعـــد كل هذا مذهب يعيش فى بيئته ، ومجتمعه (١) .

فطابعها العام هو إسقاط القيم ، ونبذ التكرار ، وعدم الخضوع للتقـــاليد الأدبية المستقرة (٢) .

بينما يركز الدكتور محمد مندور على بعض ملامحها البارزة فيقدمـــها إلى الناس من خلال تلك الملامح التى تتمثل فى العاطفية ، والتغنـــى بـــالآم الإنسان وأحيانا بمسراته ، وقلة الاحتفـــال بمجـــاراة العقـــل ، والخضـــوع لأحكامه (٣) .

ومن خلال تلك الملامح والسمات التى بدت فى تعريفات النقاد . وهـــم يحاولون النفاذ إلى مفاهيم محددة لهذا المذهـــــب .. تســـتطيع أن تقـــول إن الرومانسية بخصائصها الحية توجد فى أى مكان وزمـــان ، كلمـــا وجـــدت الدواعى ، وتوافرات الأسباب .

فهى الطابع الذى تلجأ إليه المدنيات عقب التحولات الكبيرة ، من أجـــل مواكبة التقدم ، ومسايرة الإبداع المتجدد .

---

(١) انظر : نظرات فى الأدب ص١٠٠ .
(٢) الأهرام ١٩٨٠/٣/٣١ .
(٣) فى الأدب والنقد ص١٢٧ .

وهى على هذا الأساس لم تعد مذهبا ، وإنما أصبحت طابعاً يتكرر فى حياة الإنسانية ، ولا يخلو منه اتجاه ، ومجرد خصائص تتجمع عند احتياج الحضارة إليها .

بل إن بعض النقاد يزعم (١) أن " الرومانسية " ترتبط فى وجودها بالنزوع إلى التجديد ، وهذه الخاصية لا ترتبط بعصر معين ، ولا مكان ما بل هى ممتدة وموجودة ، كما ظهرت الحاجة إلى التجديد ويرى أن كل فنان يعيش تلك الحالة .. حيث ينشأ غالبا فى ظل أنماط أدبية ، يتشربها ، وتتغلغل فى أعماقه وهو صغير ، فيستخدمها فى بداية حياته ، وعندما يصل إلى مرحلة النضج يصطدم بالواقع ، الذى يعيشه ، وينتقل معه ، ولكنه لا يخرج بالصورة التى يريدها من خلال هذه الأنماط ، فيجد أن عليه أن يشق لنفسه طريقا جديداً .. ومعنى ذلك أنه يرتاد طريقا غير مألوفة فى الشكل والمضمون جميعاً ، وبهذا يجد نفسه يعيش الوحشة ، التى هى قدر كل عبقرى . فيضطر مرغما إلى الابتعاد عن التقاليد الأدبية اقترابا من واقع فنى ، أو نفسى ، أو فكرى ، أو إنسانى .. وهو بهذا يوصف بالشطط أو التفرد ، أو بالمثالية .. ومن ثم بالرومانسية .

ومن هنا كان لكل جيل رومانسيوه الذين يصوغون رؤاهم الأصلية ، فى أشكال أدبية جديدة .

وإذا كنا نوافق الناقد فى أن لكل جيل رومانسيوه متى وجدت الدوافع وتوافرت المهيئات .. ففى الواقع الحياتى ما يؤثر بالسلب أو الإيجاب فى

---

(١) انظر : الأهرام فى ١٩٨٧/٣/٢٠ والرأى للدكتور محمد عنابى . بتصرف يسير .

حركة المبدعين كالظلم والاستبداد ، والقهر وتكميم الأفواه . وغير ذلـــك .. ولكن ليس منها بالتحديد ما عناه صاحب الرأى بالحاجة إلى التعبير من خلال قوالب جديدة .. لأن ذلك لا يؤدى بالضرورة إلى التأزم " الرومانسى " مـهما كانت الضغوط .

ويبدو أن الناقد يبرر ذلك الخلط الهائل ، من الأشكال الشعرية بصفـــة خاصة ، والأدبية بصفة عامة ، التى ملأت الساحة ، وكثر الضجيج حولها ، ومع ذلك لم تقدم للحياة شيئاً .

الأديب الرومانسى :

ونستطيع من خلال ما سبق أن نحدد ملامح الأديب الرومانسى ، وأنـه هو الذى لا يتمثل أدبا قديما .. وإنما يحاول أن ينشئ من نفســه ولنفســه لا للمجتمع بالضرورة - أدبا جديد لا يتقيد بماض .. بل يدعـو إلـى مسـتقبل مشرق ، مشبعاً بالعواطف والمشاعر الإنسانية ، والاحساسات الفردية ([1]).

كما أنه هو الذى يعرف كيف يكون مـرآة عصـره ، وكيـف يلبـى أحاسيس بيئته ، ويرسم ميولها ورغباتها ، ويصور محنها وآلامها فى نتاجـه الأدبى .

وإذا نظرنا إلى الرومانسى هذه النظرة ، وجب علينا أن نغضى عـن الزمان والمكان اللذين نشأ فيها .([2])

([1]) انظر : الأدب والمجتمع . محمد كمال الدين ص٨٦ .

([2]) انظر : أدباء الرومانتيكية الفرنسية ، ص ٦-٧.

فهو رومانسى وإن لم ينشأ فى عصرها ... ومن أجل ذلك اعتـــبروا " دانتى" رومانسيا ، وهو شاعر إيطالى حماسى سبق المذهب بخمسة قرون .. لا لشئ إلا لأنه جعل نتاجه الأدبى صدى لأحاسيس بيئته .

وعلى الطريق نفسه اعتبر بعض النقاد " شكسبير " من الرومانســـيين لأنه قدم لأمته صورة صادقة للكوارث والمحن ، التى نزلـــت بـــها بســـبب الحروب الداخلية .

وكذلك فعل الناقد الفرنسى " ليتورنير " فى نقده لمسرحيات " شكسبير " فقد أطلق على بعض جوانب مســـرحه مصطلـــح الرومانســـية ، مرتبطـــا بالشخصيات التى لا تفكر إلا فى نفسها ، وحياتها ، وحريتها ، وحبها وهـــذه سمة من سمات النزوع الرومانسى .(١)

وهذا يدلنا على اتساع نطاق الدلالات المتصلة بـــالمذهب ، واتســـاع الرؤية للشخصية الرومانسية .

فقد تجاوز الأدباء والنقاد فى عهد التأصيل للمذهـــب كـــل تضييـــق ، وتحرروا من كل القيود والرسوم .. فأدخلوا فى إطار الرومانسية كل نتـــاج يصور روح العصر .. وكل أديب يعبر عن نفسه ، ويصوغ مشاعره مـــن خلال وجدانه الخاص ، أو من خلال الوجدان العام لأمته معبرا عما تعانيـــه من آلام ، وما تتطلع إليه من آمال .

---

(١) انظر : المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية ، ص ص ٢٤-٢٥.

الأدب الرومانسى :

وعلى هذا فالأدب الرومانسى هو أدب العاطفة ، والإفضاء بذات النفس فى قوة تبين طابع الفرد ، وتعبر عن آلامه وآماله ... (١)

كما انه أدب يجحد سلطان العقل ، ويتوج مكانة العاطفـــة والشـــعور ويسلم القياد إلى القلب ، الذى هو منبع الإلهام ، والهادى الذى لا يخطـــئ ... لأنه موطن الشعور ، ومكان الضمير. (٢)

نشأة المذهب :

مما لاشك فيه أن المذاهب الأدبية لا تولد فجأة ، بين يوم وليلة ، وإنما لابد أن تسبق بما يمهـــد لميلادها ، من بذور اتجاهات تبدو متنـــــافرة هنـــا وهناك ، يتأكد وجودها بمرور الزمن ، فى أرض تستعد للتغيير مؤذنة بفجـر جديد ، ولا تصير تلك الاتجاهات مذهبا إلا إذا وضعت لها القواعد ، وأسست لها المبادئ ، ووجدت من يحتضنها من الدعاة ، الذين يقومون بمهمة البـــلاغ والتوجيه .

وهذا ما حدث للرومانسية ... فقد نشأت بذورها فى بقاع شـــــتى مـــن القارة الأوربية ، حيث زعم بعض النقاد أنها ظهرت فى ألمانيا ، ثم الـنرويج والسويد ، وعرفت فى فرنسا قبيل الثورة الفرنسية فى كتابـــــات " روســـو " و" فولتير " و"ديدور " وغيرهم .. ولكنها لم تتقرر مذهبـــاً إلا بعـــد الثـــورة

---

(١) انظر : الرومانتيكية . د. محمد غنيمى هلال ، ص ١٠.
(٢) السابق ، ص ١٨.

وسقوط " نابليون " ، وكبوة الشعب الفرنسى وفجيعته فى آماله ، التى كان يعقدها على ثورته .([1])

حيث فزع الشعراء إلى نفوسهم ووجداناتهم ، يلوذون بتجاربهم العاطفية ويهتمون بمشاهد الطبيعة والجمال ، متحررين فى أفكارهم وأساليبهم ، منبعثين فى آثارهم عن انفعال قوى ، وعواطف متقدة ، ومشاعر حية .([2])

وكانت أصول الدعوة " الرومانسية " قد حملها " شاتوبريان " و" مدام دى ستال " إلى " باريس " بعد عودتهما من المنفى .

ففقد تحدثا كثيرا عن الأدب الجديد ، الذى ظهر فى ألمانيا بأنه أدب أكثر جرأة ، وأقل التزاما بالقواعد ، وأنه أدب نابع من بيئتنا ومصادره هى ديننا ونظمنا ... واتخذت دعوتهما سنة التمرد والثورة على الأسس التى تعرقل تفتح العبقريات ، وعلى القيود التى تمسك النزعة الفردية .([3])

فلاذ المبدعون بالشعر المجنح بأشجان العاطفة ، الممعن فى الخيال ، والأحلام ، والرؤى ، وحب الطبيعة ، والانطواء على النفس . ([4])

([1]) نظرات فى الأدب : ص ٩٩.

([2]) دراسات فى النقد الأدبى د. محمد عبد المنعم خفاجى ، ص ص ٥٠،٥١.

([3]) انظر : المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب الغربيين د. شكرى عياد ، ص ١٧٤
وأيضا : نظرات فى الأدب ، ص ٩٩.

([4]) دراسات فى النقد الأدبى : ص ٥١

ويذهب الدكتور غنيمى هلال إلى أن هذا الاتجاه ، عرف فى نهاية القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر فى إنجلترا أولاً ... ثم فى ألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا .([1])

بينما يرى آخرون أن الرومانسية الإنجليزية ، كانت أسبق من ذلك فى الظهور إذ يرجع معرفتها فى تلك البيئة إلى عام ١٧١١ عندما كتب "شافتسبرى" كتابة الأخلاقيات ... وفيه نادى بالايمان بالطبيعة ، كمصدر للخير والحق ، والجمال والعبقرية ، وأن الغرائز التى جبل عليها الإنسان شئ مقدس ،ويجب أن يجد متنفسا صحيا لها .

ثم تبعه " جيمس تومسون " فى كتابه الفصول الأربعة عام ١٧٣٠، وفيه تكلم لأول مرة عن العاطفة الصادقة ، والطبيعة المنطلقة دون قيود . وهى المضامين التى يجب على الشعر الجديد أن يحتضنها .([2])

والسبب فى هذا الخلاف أن النقاد يبحثون عن البداية ، لأول بذرة رومانسية ، عرفت طريقها إلى أى مكان فى البيئة الأوربية وهذا أمر لن يتأتى لأحد بصورة قطعية .. لأن بعض الملامح الرومانسية لا يستحيل وجودها فى أدب أديب قبل القرن الثامن عشر .. بل قبل ذلك بزمن طويل .

فكثير من الشعراء نجد فى نتاجهم لمحات رومانسية .. دون أن يكونوا بالضرورة ، من أدباء أوربا .. ودون أن يكونوا كذلك من أدباء القرن الثامن عشر .

([1]) الأدب المقارن .

([2]) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية ، ص ص ٢٧-٢٨.

ففى الشعر العربى مثلا كثير من النماذج التى عرفت فـــى عصـــور سابقة وعند شعراء كثيرين ، وفيها بعض الملامح التى عرفت فى القـــرون الأخيرة على أنها من سمات الرومانسية . ، ويمكن إخضاع تلـــك النمـــاذج للدراسة وفق تلك الخصائص دون أن ينسب بـــالضرورة إلـــى الرومانســـية فالاتجـــاه الرومانسى وإن كان قد عرف فى سائر أنحاء أوربا على صـــور شتى .. إلا أنه لم يتقرر مذهبا إلا بعد سقوط الثورة الفرنسية كما ذكرنا .

ومن الجدير بالذكر أيضا أن هذا المذهب مر فى فرنسا بطورين :

الأول : منهما بدأ عام ١٨٠٠ عندما بدأت آثار الثورة الفرنسية تظـــهر فـــى الأدب .

الثانى : فيبدأ من عام ١٨٢٠ حيث كانت الأصول العامة ، والقواعد المذهبية قد تبلورت وتكونت فى خلال السنوات العشرين السابقة وكان الدافـــع وراء هذا التحديد الزمنى الدقيق ، يرجع إلى أن عام ١٨٢٠ قد شهد صدور ديوان " تأملات " للشاعر الفرنسى " لامرتين " فكان بمثابـــة ثورة وجد الشباب فيها تحقيق آمالهم ، فاتخذوا الشاعر وديوانه مثـــلا أعلى .

وجاء " فيكتور هوجو " فاحتل الزعامة العالمية للمذهب بعد أن كـــثر أدباؤه فوجدنا ميسه " و" فينى " و" جورج صاند " و" سانت بيف " و " بلزاك " و " ساندال " (١) وغيرهم ممن كانوا يملأون الدنيا ضجيجا بمـــا يكتبـــون

---

(١) انظر : الأدب والمجتمع ... ، ص ٧٩.

برؤية جديدة للفن والحياة ، تقتلع جذور الكلاسيكية القديمة والحديثة على السواء .

ويؤكد لدكتور / محمد مندور أن هذا الاتجاه لم يصبح مذهبا إلا عندما أخفقت الثورة الفرنسية فى تحقيق الآمال ، وكثر الاتصال بالآداب الألمانية والإنجليزية على أثر الهجرات التى سببتها الثورة (١) فقد كانت الثورة الفرنسية فى الأصل تعبيرا عن مفاهيم الطبقة الوسطى ، وشعور الفرد بكيانه بعد فترة من الديكتاتورية والإقطاع المستبد ، الذى عانى منه الفرنسيون ، فتطلعوا إلى التخلص والتحرر من أعباء ذلك البلاء .

فكان القرن الثامن عشر ، وما حدث فيه فى فرنسا وغيرها من استبداد وظلم وبطش سببا فى ظهور طائفة من الفلاسفة والمصلحين الذين أخذوا على عاتقهم مناقشة قضايا المجتمع ، بكثير من الجرأة والإقدام والتمرد على كل ما هو قدي أملا فى تحقيق بعث جديد ، يرفع المظالم عن المظلومين ، ويضمد جراح البائسين .

وكان " جان جاك روسو" الأب الروحى للرومانسية والثورة الفرنسية ، هو واضع البذرة الأولى للثورة على الظلم والفساد ، والقيود المكبلة ، لحركة الفرد وحريته .

وكان من دعوته أن الفرد لن يكتمل نموه ، ولن يحصل على حريته إلا بتحطيم تلك القيود الفكرية والمادية ، التى فرضها المجتمع .

---

(١) فى الأدب والنقد ، ص ١٢٦ .

فجاءت الثورة الفرنسية معبرة عن تطلع الناس إلى الحرية والمساواة والرخاء ، والقضاء على ديكتاتورية الماضى وإقطاعه ، ولكن انهيار " نابليون " بعد قيام الثورة بسنوات ، أحدث خيبة أمل كبيرة ، أعقبها أسى وحسرة وبكاء وجحود .

فقد شك الرجال ، وجحد الشباب ، وذبلت القلوب ،وانحنت على ذاتها مغرقة فى الحزن والتشاؤم .

ووسط هذا الجو المشحون بالآلام والمعاناة ، والتأزم النفسى ظهرت الرومانسية تعبيرا أدبيا عن ظروف العصر وملابساته ، وما اكتنفه من أحداث ، وما طرأ على حياته من تغيرات وتطورات.

ملامح المذهب :

لا نجد عناء كبيرا إذا ما حاولنا التعرف على ملامح " الرومانسية " من خلال ما كتب عنها ... وقد رأيناها تبرز واضحة جلية ، فى عدد من المحاور التى عليها تتكئ المبادئ والأسس .

وقد كانت الذاتية هى القاسم المشترك ، الذى يصدر عنه كل نتاج رومانسى ، فى الشعر والقصة والمسرح ، لا يشذ عن ذلك أحد ، ولا يتخلف عن مسارها أديب .

وما كان ذلك إلا لأنها تهتم بمشاعر الفرد الخاصة ، وتتغنى بها فى حرية وانطلاق ، بعيداً عن القيود والسدود .

فالحرية مكفولة للأديب ، ومن حقه أن يقول ما يشاء ، فى أى وقت ، وبأى كيفية .

فالمذهب الجديد ، يدل على الحرية الأدبية ، والانطلاق الشـــعورى ، وظهور المشاعر الفردية ظهورا قويا فى الإنتاج الأدبى .(١) والرومانســـى بهذه الذاتية تحرر من كل الأعباء الخارجة عن ذاته لكل الأعباء التى كـــانت مفروضة عليه وعلى المجتمع ، بسلطان العادة والتقاليد ، فانفصل بها عـــن الإطار العام منطلقا من مشاعره الذاتية ، وراح يبنى لنفسه عالمـــا خاصـــا يموج بالأحلام والرؤى والتطلعات .

ولقد تعضد هذا الأساس عند الرومانسى بالدعوة إلى الحريـــة ، وقـــد كانت عندهم " غالية .. بل هى أغلى شئ فى الوجود .(٢) ولهذا كثيرا مـــا قاموا إلى إقامة مجتمع جديد ، تسوده الحرية ، ويدعمه الاســـتقرار الفكـــرى والعاطفى .(٣) وهم غالبا أصرار يقفون فى صف الطبقات المظلومة ومـــن دعاة الحرية والأنظمة الجمهورية .

وترتبط الحرية عندهم بالثورية وقد كانت الثوريـــة مترتبـــة عليـــها ، ونتيجة لها لأن الحرية إذا تحققت حطمت كل حواجز الخوف عند الإنســـان ، وفتحت أمام وعى بصيرته الطريق لتحقيق ما يأمل فيه ، وما يسعى إليه ولن يجد إلا الثورية وسيلة للوصول خصوصا فى مواجهة أوضاع فاسدة ســـائدة ، حققت لنفسها وجوداً وهيمنة على الحياة والناس ، صارت بمضى الزمـــان ،

---

(١) معالم النقد الأدبى د. عبد الرحمن عثمان ، ص ١٨٧ وانظر أيضا تطـــور الشـــعر العربى الحديث فى مصر د. ماهر حسن فهمى ، ص ١٥٤ وإبراهيم ناجى للدكتـــور على الفقى ، ص ١١٤.

(٢) تطور الشعر العربى الحديث فى مصر ، ص ١٥٦ .

(٣) معالم النقد الأدبى : ، ص ١٨٨-١٨٩ .

واستكانة أصحاب الحق ، وكأنها حقائق الوجود التى لا تتبدل ولا تتغير ولا يحق لأحد أن يفعل ما يخرقها .

وفى مثل هذا الوضع تكون الثورية مطلبا من مطالب الضرورة لإحداث التحول .

ومن هنا وجدنا " الرومانسيين " يحملون على أكتافهم عبء المواجهة ففى المجال الأدبى " كان التمرد على القواعد " الكلاسيكية " لأنهم وجدوا فيها نوعا من الالتزام الجدى ، الذى يجعل من القواعد قيد لا فكاك منه " (١)

ولما كان العقل هو مركز الدائرة فى منهج الكلاسيكيين ... فقد ثار الرومانسيون على هيمنته ، وسلطانه على مشاعر النفس والوجدان الفردى ، لأن العقل مهما بلغت قوته يعجز عن ارتياد المناطق التى ينفذ إليها القلب ، وتحلق فيها المشاعر والعواطف .(٢)

كما ثار الرومانسيون ضد نقائض المجتمع وشروره ، وهم لايثورون على الناس ، إلا لما يرون ما هم عليه من نقائض ، وما هم فيه من ذل وجهل ، وإسفاف ، وجبن ، وعدر .(٣)

وكانت أروع مواقفهم فى تاريخ أوربا تلك المواقف التى ثاروا فيها ضد الاستبداد والطغيان ، انتصافا للبائسين والمشردين .

---

(١) معالم النقد الأدبى د٠ عبد الرحمن عثمان ، ص ١٩٢ .

(٢) السابق ، ص ١٨٧.

(٣) الرومانتيكية د٠ محمد غنيمى هلال ، ص ٤٩.

ومعظم نقاد هذا المذهب من الأوربيين والعرب ، يعدون " جان جـــاك روسو " جد الرومانسية الأكبر ، وقد كان مفكـــرا إصلاحيـــاً يكـــره الظلـــم والاستبداد ، ويحض الناس على الثورة .. وكانت نداءاته وكتاباتـــه ، تمثـــل التمهيد الفعلى ، بل العامل المؤثر فى قيام الثورة الفرنسية .

وذلك يعنى بالضرورة أن الرومانسية لم تقف مكتوفة الأيدى من قضايا المجتمع والناس وعاشت كما نظن أو يفهم من قواعد المذهب معزولة منغلقة على ذاتها ، تبكى آلامها وأحزانها ، ولا تبالى بالحياة ومن عليها فهذا الظـــن ليس صحيحاً كل الصحة ، ولا ينطبق على الرومانسية فـــى كـــل مراحلـــها وأطوارها .. لأنها من أول الأمر احتضنت قضايـــــا المجتمـــع الفرنســـى ، ومشكلاته ، بعد سقوط نابليون ، وعودة الملكية إلى فرنسا فى عهد لويـــــس الثامن عشر ، ثم بعده كـــان" شارل " العاشر الذى تنكـــر للشـــعب وخـــرق القوانين ، وجعلها فى خدمة أهدافه وأطماعه ، مما كان سببا فى قيام ثـــورة الشعب ١٨٣٠ ووقتها " لم يعد ممكنا للأدب أن يبتعد عن هذه الحـــال .. وان يبقى أسير ذاتيته ، وغنائيته ، وسوداويته .. وبدأ الشعور بالواجب الوطنـــى يقوى ويجعل للأدب رسالة " ([1])

ولم يأل الرومانسيون جهدا فى تعضيد قضايا النضال ، والوقوف ضـد البغى والعدوان ، حتى قال أحـــد روادهـــم وهـــو " فيكتـــور هيجـــو " إن الرومانتيكية هى التحريرية فى الأدب ،وكان " لامرتين " شاعر الرومانسيين الأشهر يقول : عار على من يغنى وروما تحترق .([2])

([1]) انظر : الخلاصة فى مذاهب الأدب الغربى د٠ على جواد الطاهر ، ص ٢٤ .

([2]) السابق والصفحة .

ولهذا يؤكد الدكتور على جواد الطاهر : أن الرومانسية فى الأصل " ثورة أدبية ، خطيرة الشأن ، تقوم على الانتصاف للبائسين ، من قيود المجتمع ، والسخط على شروره ، وهدم المعوقين لحرية الفرد ومقاومتهم " (١) وإلى جانب الذاتية والحرية والثورية .

كان النزوع نحو القومية الوطنية وتجلى ذلك فى إحياء اللغات المحلية للشعوب فقد كانت الرومانسية تستوحى الآداب القومية ، التى نشأت فى فرنسا ، وفى غيرها .(٢)

ويؤكد ذلك أيضا نزوعهم إلى التعرف فى حقائق التاريخ ، عند صياغة المسرحيات ، للوصول إلى مستقبل أفضل للطبقة المظلومة ، وإبراز تاريخ وطنى جليل ، وإذاعة اللون المحلى ، وبعثه فى الصور الأدبية .(٣)

وهذا يتطلب بالضرورة إحياء الآداب الشعبية ، واستلهامها بما فيها من أساطير وتراث خصوصا ذلك التراث الذى يمجد الماضى فى تاريخ الأمة ويجلى مواقف البطولة فيها ، ولذلك كانت القصة التاريخية أحد وسائلهم فى التعبير عما يطمعون إليه ، ويأملون فيه .(٤)

وقد ظلت الرومانسية نشيطة بناءة تؤدى دورها ، فى التحول والتغيير محملة بأعباء الحاضر ، ومشاكله ، مستعدة لتقديم أى شئ ، فى سبيل تحقيق

---

(١) السابق : ص ٢٥ .
(٢) فى الأدب والنقد د٠ محمد مندور ، ص ١٢١ .
(٣) معالم النقد الأدبى ، ص١٩٥.
(٤) إبراهيم ناجى د٠ على الفقى ، ص ١١٤ . وانظر : المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والأوربيين د٠ شكرى عياد ، ص ١٧٦ .

المثل ، التى ثاردا من أجلها ، حتى الحياة رأوهـــا هينـــة لديـــهم فنـــادوا " بالتضحية بها فى سبيل الإنسانية ، أو الخروج منها نجاة من شرور لامناص منها إلا بالموت . ([1])

إلا أن ذلك لم يطل كثيرا حتى استحال الأمر إلى فردية مظلمة تتحدث عن الذات والألم أكثر مما تشارك فى النشاط الإنسانى فقد كانت حساســـيتهم مفرطة تجاه الواقع المر وما يموج فيه من شرور وآثام ، وبغى وعـــدوان ، وهم ينشدون الكمال والمثال وهيهات أن يتحقق الكمال فى عـــالم البشـــر . وعندما صدمهم الواقع بذلك لم يجدوا إلا الهروب من الواقع والانكفاء علـــى الذات وترتب على ذلك ، تخليهم عن ريادة المجتمع البورجوازى ، وانفصال بعض أدبائه عن الطبقة الوسطى ، وتعالوا بأدبهم عن أن يصبح وسيلة مـــن وسائل الترفيه ... وانتهى الأمر بكثير منهم إلى الانطواء والعزلـــة ، وبـــهذا صار أدبهم تمثيلاً للمشاعر الخاصة ، وإبرازاً للأحاسيس الخاصة مما أشـــاع فيه الفردية على هيئة صراخ عاطفى ، وأنين شعورى ، ودموع وألم .([2])

ومن هنا برزت ملامح الهروبية ، والغربة ، والتشـــاؤم ، والحـــزن ، والكآبة . وكان ذلك فى مرحلة متأخرة من تاريخ الرومانسية الأوربية ولعـــل هذه الملامح أبرز ما يعرف الناس عن طبيعة هذا المذاهب ، وعلى أثر ذلـــك قالوا : إن الأدب الرومانتيكى وليد الألم ، ولا ينشط إلا مـــع الحـــزن ، ولا يزدهر إلا فى الوسط الغائم .([3])

([1]) الرومانتيكية د. محمد غنيمى هلال ، ص ١٠٦.

([2]) انظر : معالم النقد الأدبى د. عبد الرحمن عثمان ، ص ١١٩.

([3]) انظر تيارات من الشرق والغرب د. إبراهيم سلامة ، ص ٣٠١.

ونتيجة لشيوع هذه الملامح فى أدبهم راح النقاد يبحثون عن تبرير مقنع لما صاروا إليه من حزن وقتامة .

فرأينا الدكتور / غنيمى هلال ، يفسر غربة الرومانسى عن عالمه بأنه " عصبى المزاج ذا نفس سريعة التأثر ، وعقل ولوع بالجرى وراء المتناقضات ، وبالتطرف فى أحواله .. وأنه مع ذلك معتد بذاته يعتقد أنها مركز العالم من حوله ويجب لذلك أن يتميز عمن يحيطون به فى خلقه وعاداته ومبادئه . ([1])

وهو بذلك قد عزل نفسه ، وانفصل عن الآخرين ، مستعليا عليهم بما ينشد من مثال كما انه لم يستطع أن يتكيف مع الواقع وظروف الحياة ، وما تموج به من متناقضات .

وقد ظن هؤلاء الرومانسيون بأحلامهم أن فى مقدورهم تغيير مسار الحياة وتبديل سنن الوجود فلما لم يتمكنوا وقعوا فى هوة سحيقة من الألم والعذاب ولم يكن أمامهم إلا الهرب من زحام الحياة وزحام العراك البشرى إلى الطبيعة " ([2]) وكانت غربتهم فى عصرهم تعبيرا عن عدم الرضا بالحياة وعن القلق أمام عالمهم وما يعج به من أحداث .([3])

وإذا كان الرومانسى قد فقد ذاته مع الناس ولم يعد يشعر بشىء من التجاوب معهم ، فليلتمس عالما آخر يحيا فيه بنفسه ، بعيدا عن ضباب الحياة وكذبها .

([1]) انظر : الرومانيكية ، ص ٤٢.

([2]) الشاعر الرومانسى أبو القاسم الشابى د. عبد الحفيظ محمد حسن ، ص ٨١.

([3]) الرومانيكية د. محمد غنيمى هلال ، ص ٤٠.

وقد كان ذلك العالم المنشود ، هو عالم الطبيعة ، فهى الحضن الدافئ الدافق بالحياة الحقة فى براءتها وطهارتها . فهى أوفى وأبر عليهم من حياة البشر ولذلك رأيناهم " يتعزون بجمالها عن آلام الحياة " وينشدون السلوان فيها ، ويبثونها حزنهم ، ويناظرون بين مشاعرهم ومناظرهم .([1]) فى حالة من الهيام الذى تمتزج فيه أرواحهم بها حباً وتقديسا .

ولذلك كان الوصف العاشق لجمال الطبيعة والاندماج مع عناصرها ، سمة بارزة من سمات المذهب .

والتلاؤم مع الطبيعة لا يعنى بالضرورة انجذابهم نحو مظاهر الجمال فيها ، بل إنهم فى بعض أحوالهم كانوا يرتادون الأماكن الغريبه التى كثير فى الإنسان أغرب الأحاسيس مثل المقابر والخرائب فى ضوء القمر .([2])

أما فى أغلب تلك الأحوال فقد وجدنا شعراءهم يلتمسون فيها أنفسهم ويهربون إليها بأرواحهم بعيدا عن ضوضاء الحياة وصخب المشاكل التى كانوا يعانون منها فى حياتهم .

ولاشك أن إحساس الرومانسيين بالغربة عن عالمهم هو الذى هيأ لهم الهروب إلى ساحتها ودفعهم إلى الاندماج فيها اندماجاً كاملا أدى بهم إلى اتخاذ بعض مظاهرها أصدقاء يبثون لهم الشكوى ويذرفون الدموع بين أيديهم فلعل فى شكواهم وبكائهم بعض التخفيف عنهم عناء ما يحملون من أسى وحرمان .

([1]) السابق ، ص ١٣٩.

([2]) انظر المذاهب الأدبية الكلاسيكية إلى العبثية د. نبيل راغب ، ص٢٦

وقد بالغوا فى ذلك ، حتى وجدناهم يناجونها كما يناجون معشـــوقاتهم كما لو كانت كائناً يحس ويعقل ويرتمون فى أحضانها كما يرتمى الطفل فـــى حضن أمه ، ويعانقونها كما يعانق المحب محبوبتة ويحسون نحوهـــا بـــهيام روحى غريب .(١)

وهم عندما عبروا عن كل ذلك لم يكتفوا بنقل الخصـــائص والتمـــاس النظائر كما كان يفعل القدماء دون أن يكون بين ذلك وبين تجربة الشاعر أى رابط من مزاج أو فن أو شعور وإنما خلعوا عليها من قيم الحياة ما يجعلـــها كما قلنا شخوصا تتحرك ونفوسا تتألم .

ومن الظواهر اللافتة للنظر : ارتباط الطبيعة عندهم فى معظم الأحيان بالحب والمرأة حتى نكاد نقرر أن شعر الطبيعة والمرأة والحب يكون عندهـم موضوعا واحدا حيث الدافع الجمالى ، والنظرة المثالية يكمنان وراء التولـــه بالحب والطبيعة .

الرؤية الرومانسية للحب والمرأة :

يحتل الحب لدرجة الهيام المكان الأول عند الرومانسيين وهـــو شـــئ عظيم وعفيف ، حتى يبدوا وكأنه من عالم السماء والملائكة ، ولاعلاقة لـــه بالأرض وماديتها وهو لازم للحياة الإنسانية ومن لايعرف الحب ، ولا يكـابد أشواقه يحكمون عليه بقصور مداركه وبلادة إحساسه ، وغظ شـــعوره ، ولا يحق له أن يحيا حياة الآدميين .

---

(١) انظر تطور الشعر العربى الحديث فى مصر ١٩٣ .

ومن هنا وجدنا الحديث عن الحب فى الأدب " الرومانسى " يحتل قدراً كبيراً من اهتمامهم بل أنه يعد المحور الأول فى النتاج الأدبى .

وقد صدورا فيه عن رؤية خاصة تنحاز إلى جانب القداسة فى تصوره ومعاناته .

فالحب عندهم فضيلة لأن الإنسان يطيع ناموس الطبيعة عندما يحب فإذا ضاق " الرومانسى " بالحياة فالحب عنده هو السعادة المنشودة وهو يقنع من محبوبته بابتسامة تزيل ما بنفسه من آلام ، وتشعره بالهناءة فهو لا يطلب لذة الجسد ، ولكنه يطلب متعة الروح .([1])

والرومانسيون جميعهم ينطلقون فى نتاجهم من فسلفة خاصة تؤمن بالحب سبيلاً إلى سعادة الفرد وتكاد تنحصر علاقة الرومانسى فى حبه المثالى ذلك الحب الذى قد يجنح ليصبح رؤية صوفية خاصة لا يصلها إلا من وصل إلى منزلة الكشف .([2])

ولعل دافعهم إلى ذلك كان تطلعهم إلى المثل الأعلى ومحاولة رسم معالمه بعد أن تدنست الحياة بالشرور والآثام كبديل يسعون إلى تحقيقه وبعثه لتستأنف مسيرة العفاف من جديد .. خصوصاً وأن الشاعر " الرومانسى " كان يعرف قيمة الحب فى الحياة كأساس متين وأصيل فى تحقيق البهجة والسعادة وقد تأتى له هذا الفهم لأنه يعيش بخياله مع أطياف الحب وصوره ويبنى لنفسه عالماً من أغصان الطبيعة وزهورها يأوى إليه ، ويرتاح فيه ،

([1]) الرومانتيكية د٠ محمد غنيمى هلال ، ص ١٤٤ وما بعدها .

([2]) انظر : مجلة الكاتب عدد مارس ١٩٧٧ مقال الدكتور طه وادى .

ليفكر فى قلبه وفى حبيبته المعبودة تلك الحبيبة النورانية التى يحبـــها حباً روحياً شفافاً يسمو فوق مطالب الجنس والغريزة .

وهذه النظرة للحب تنشد المثالية الكاملة التـــى يمـــتزج الحـــب فيـــها بالإجلال والشغف بالعبادة .([1])

وهى نظرة تجعل الحب غذاء الروح الذى يسمو بالنفس ويرتفع كمـــا ارتفعت الطبيعة إلى مكان القداسة .([2])

ولهذا لم يعد الحب إثما بل أصبح حرية ، ولم يعد الجسد خطيئة وإنمـــا أصبح نقاء وطهراً.

" وقد مجدت " الرومانتيكية " الحب وعطفت حتى علـــى الخاطئـــات واعتبرته أساسا للحياة ، وشريطة للارتباط بين الرجل وشريكة حياته ، فـــإن خلت حياتهما من الحب اعتبر ذلك خطيئة .([3])

ومن الظواهر الملفتة للنظر فى شعر الحب عند " الرومانســـيين " أن معظمة يدور حول الالم ، والحزن ، والمعاناه ، مرتبطاً فى ذلك كله بـــالقلق ومشحونا باليأس ، ومغلفا بالضباب ، على نحو ما سنراه إن شاء الله تعـــالى فى شعر " مدرسة الديوان " وبعدها " أبوللو " وقبلهما " مطران خليل مطران"

وقد اكتسب الحب عندهم تلك الصفات ، لأنه يصطدم بعقبات الواقـــع التى لا تلتقى مع المثالية الكاملة التى اخذوا أنفسهم بها ، وتـــهذيب طباعـــهم

([1]) انظر : الشاعر الرومانسى ، ص ١٢٨.

([2]) انظر : ابو القاسم الشابى شاعر الحب والثورة رجاء النقاش ، ص ٥٠.

([3]) تطور الشعر العربى الحديث فى مصر د٠ ماهر فهمى ، ص ١٩٧.

عليها ولهذا كثيراً ما نرى التعبير عن الفشل قاسما مشـــتركا عنـــد هـــؤلاء الشعراء .

يقول الأستاذ رجاء النقاس مؤكدا ذلك عن هذا الحب الحزين إنه الحب الشائع عند الرومانسيين لأنه يغذى فيهم ذلك الشعور الغريب إلـــى نفوســـهم وهو شعور الحزن .

وهذا النوع من الحب أيضاً هو منطق طبيعى لأحلام خياليـــة تصـــدم بالواقع وقوانينة .([1])

ويحلو لبعض الناقدين والدارسين أن يربط هذا النوع من الحب ، بمـــا عرف فى تاريخ الشعر العربى باسم " الحب العذرى " .

وليس فى هذا الربط غرابة لأن طبيعة الأشياء تحتم وجود صلـــة مـــا بتراث الآباء الذى ظل يتردد صداه فى كل عصر وجيل ، حاملاً ذلك النغـــم الأخاذ ، وتلك التجربة الفريدة ، التى صدر عنـــها العـــرب قبـــل ميـــلاد " الرومانسية بآماد طويلة .

ولاشك أن هذا التراث العذرى قد لفت انتباه شعراء الجيل جميعهم إلى ثرائه وخصوبته فانضم ذلك عاملا آخر من عوامل تكوينهم الثقافى ولذلـــك رأى بعض النقاد أن هذا الغزل العذرى ، الذى عرفـــه الأدب العربـــى فـــى صدر الدولة الأموية .([2]) وأن صوفية ذلك الحب العـــذرى كـــانت منطلـــق المجددين فى الشعر الحديث ، عندما أخذوها تيارا عاطفيا . تمثل فى فلسفتهم

([1]) أبو القاسم الشابى : شاعر الحب والثورة ، ص ٥٥

([2]) تطور الشعر العربى الحديث فى مصر ، ص ١٩٩.

العاطفية ، المملوءة بالحب ، والحرمان ، والألـــم ، والعـذاب ، والضنـــى والأرق .(١)

فالحب العذرى هو الذى تسامت به العاطفة عن المتع الحسية ووسـيلته الحرمان . وهو بهذا المعنى يكون داخلا فى صميم الأدب والفن الإنســانيين لأنه يحقق أولاً وقبل كل شئ قيماً إنسانية سامية ، فوق الملذات والشـهوات ، ولابد فيه من توافر الصدق فى العاطفة والعقيدة ، حتى تتيسر له الخصـائص المطلوبة التى يعد من أبرزها .

الإيمان بالعفاف إيمانا يجعل منه روح ذلك الحب فإذا زايـــل الحـب العفاف فهو فجور وفسوق ، وليس من العاطفة فى شئ .

ومن هنا لم يكن لذلك الحب من غرض حسى .. بل كانت غايتـــه أن يحظى المحب برؤية محبوبة ، أو يقنع بذكره وتصوره فى خاطره ، أو رؤية طيفه فى أحلامه ، أو يتمنى لقاءه .

إن المحبوب أرفع درجة من المحب فلا يؤاخذ على ذنب ، ولا يقـــابل بإساءة فذنبة مغفور ، وإساءته متجاوز عنها . نجد ذلك فى أشعار العذريين على التشنيع على الغدر والهجر . ويتبع ذلك أن يقف المحب دائمـــا موقـف المحب دائما موقف الذلة ، وأن يرضى بالحرمان حظاً له فى الحياة فقد كـلن من تقاليد العذريين أن النكاح يفسد الحب . أو بمعنى آخر أن إشباع الغرائـز يعصف بالمشاعر الملحقة والعواطف السامية .(٢) وهو حب خـــالص مـن

---

(١) الهلال أغسطس ١٩٧٦ من مقال د٠ محمد عبد المنعم خفاجى .

(٢) انظر : دراسة الحب فى الأدب العربى ج١ ، ص ٢٧ د٠ مصطفى عبد الواحد .

الدنس والرجس وطاهر شريف لا يعـــرف مخزيـــات المـــأثم ولا منديـــات الأهواء.

إنه دائما يترفع عن شوائب المادة ، ويسمو إلى نورانية الـــروح .([1]) وهذه مطالب الاتجاه الرومانسى وطبيعة تصـــوره للحـــب وجدناهـــا جليـــة واضحة فى أشعار المجددين كأثر لتأثرهم بهذا المنزع من المنبعين العربـــى والأوربى .

ولما كانت نظرة الرومانسيين للحب على هذا المستوى العـــالى مـــن الروحانية والسمو ، فإنها ستطرح نفسها بالطبع علـــى تصورهـــم للمـــرأة ، مصدر هذا الحب وباعثته .

وقد وجدناها روحاً شفافة وخيراً مطلقا ، وصفا كاملاً وليست مزيجـــا من الخير والشر ولا تنتمى إلى عالم البشر بل هى " ملك هبط من الســـماء يطهر قلوبنا ويرقى بعواطفنا ،ويذكى شعورنا ، ويشـــجعنا علـــى النـــهوض بأعباء واجباتنا ([2]) كما رأيناها عندهم قطعة فنية من فنون الســـماء يلتمـــس لديها الوحى والإلهام .

والرومانسى يحمل معنى القداسة للمرأة فهى عنده الحبيبة المعبـــودة ، وكثيراً ما يربط بينها وبين أجمل ما فى الطبيعة من مظاهر .

وهذا النظر المثالية للمرأة تعد سمة مشتركة بين الفنانين الرومانســـيين فى الأدب الإنسانى كله وقد تعرفنا عليها عنـــد "شـــيلى" و"وردزورث"

([1]) العشاق الثلاثة د. زكى مبارك ، ص ١٥ .

([2]) الشاعر الرومانسى أبو القاسم السابى ، ص ١١٥ .

و" دى موسية " وغيرهم من شعراء " الرومانسية " الأوربية فكل هؤلاء الشعراء يشتركون فى سخطهم على الواقع ، وهروبهم منه إلى عالم خيالى مثالى للحب ، تعيش فيه أحلامهم عن المرأة الكاملة ، كأنها حقائق الحياة الثابتة ، التى يرونها ، ويعترفون بها .. إنهم يعوضون ما يحسونه من نقص فى واقع الحياة بما فى أحلامهم من كمال ومثالية . " (١)

وكذلك كان الحال بالنسبة للتصور العذرى للمرأة .. فقد كان الشاعر العذرى " يخلق منها متعة روحية تسيطر على مسالك ضلاله ، ومذاهب هداه .. وكان يراها أمنع من الظبية العصماء ، وقد يراها أبعد من نجم السماء .. المرأة عند الشاعر العذرى مثال رائع لاتحده الأوهام ولا الظنون . (٢)

وثمة جانب آخر يفجر قضية هامة فيما يتصل بهذا النزوع الرومانسى وتصوره للحب والمرأة على شاكلة ما بينا .. ذلك الجانب يتمثل فيما لمحناه ، عند بعض شعراء الرومانسية .. أو بمعنى أدق المتأثرين بالرومانسية فى شعرنا العربى الحديث . من بروز مظاهر الحس وإغواءات الجسد فى بعض مناحى التجربة الشعرية .. الأمر الذى يفقد هذا الشعر انتماءه إلى هذا الاتجاه الرومانسى المنعوت بالتسامى والروحانية .

كذلك وجدنا واقع التجربة الحياتية لعدد من الشعراء يوضح ظاهرة تعدد المرأة على قلب واحد.. الأمر الذى يثير الشكوك فى مصداقية الحب ..

---

(١) انظر : أبو القاسم الشابى - رجاء النقاش ص ٥٣ .

(٢) العشاق الثلاثة د. زكى مبارك ص ٢٠ .

ويبعد عنه صفة القداسة المرتبطة دائماً بالوفاء كنتيجة أكيدة للتوحيد فى الحب الذى تقتضيه نزعة السمو والتسامى . خصوصاً وقد رأينا بعض الشـــعراء " يكلف بالمرأة روحاً ووجداً وعذاباً وبعضهم يهيم بها جسداً ومتعة " . (١)

وإذا كان هناك من عاش تجربته فى الحب مع امرأة واحـــدة طـــوال حياته ، فإننا نجد أيضاً عدداً كبيراً من الشعراء ، قد تنقل بهواء من امرأة إلى أخرى ، بلا ملل ولا سأم .. حتى إن بعض النقاد عد نزوعهم ذلك نوعاً مـــن " التسلية " ونعت معظم شعراء الرومانتيكية بالإشراك فى الحب ، ثـــم راح يبرر مسلكهم ، كنوع من تخفيف حدة الحكم عليهم بالجنوح ، فزعـــم أنـــهم فعلوا ذلك على شريطة أن تكون المرأة جميلة ، وأن يكون جمالـــها موحيـــاً بالشعر ، وأن تستطيع بما خلقته فى وجدانه من انطباع وإحســـاس بالجمـــال قادرة على الصد والجفاء ، وعلى براعة فائقة فى الدلال .. فبذلـــك وحـــده تستطيع أن تهز عواطفه .. وبذلك أيضاً يســـتطيع أن يســـتغنى عنـــها ، إذا صادفته امرأة أخرى من نفس نوعها متفوقة فى الجمال . (٢)

إن هذه الظاهرة تعبر عن أن هؤلاء الشعراء لم يعرفوا التوحيد فـــى الحب كما فهمه الأقدمون فى التعلق بامرأة واحدة من النساء لا يبعد عنها إلى غيره .. وكان هذا هو مذهب العذريين فى علاقاتهم بمن يحبون .. وهـــؤلاء المحدثون فى تعددهم قد خالفوا العذريين فى منحاهم .. فعرضـــوا أنفســـهم للاتهام بانعدام الصدق العاطفى ، وانعدام الأصالة فى الحب .. وقـــد رشـــح

---

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر د. أحمد هيكل ص ٣١٣ .

(٢) تطور الأدب الحديث فى مصر د. أحمد هيكل ص ٣١٣ .

لوجاهة هذا الاتهام واقع حياة هؤلاء الشعراء ، وما امتلأت به مـــن ألـــوان النساء . (١)

ولكننا إذا احتكمنا إلى المنطق " الرومانسى " الذى اعتمدوه أساســـاً لحركة عواطفهم ومحوراً لتوجه مشاعرهم .. والذى يتمثل فى البحث عـــن المثال الأعلى للكمال كما تصوروه .. لوجدنا أنهم لم يبعدوا كثيراً عن دائـــرة التوحيد التى فهمها القدماء من العذريين ، واتخذوها مذهباً فى الحب .

فهؤلاء المحدثون أجهدوا أنفسهم فى البحث عن المثال .. وكانوا كلما امتد بهم خط البحث اكتشفوا أنهم مازالوا عند نقطة البداية ، فالأمل المنشـــود مفقود على أرض الواقع .. ومع ذلك لم ينقطع أملهم فى لقائه .. ولم يتوقـــف سعيهم إليه فى دأب وإصرار .

ودليلنا على ذلك أن تجاربهم فى العشق تدور كلها حـــول قصـــص عاطفية تبوء دائماً بالفشل ، ويلحقها الإخفاق فى كل حال .

وكان وقع هذا الإخفاق عليهم عظيماً ، وشديداً ، وأليماً .. وقد عرفنا مظاهره واضحة فى الإحساس بالغربة .. وفى لفحة الحزن والأســـى التـــى تعكر حياتهم .. وفى ذلك اليأس القاتم الذى يغلف تجاربهم ومشاعرهم بلفائف من السواد والقتام .. وفى كل ما يترتب على ذلك الإخفاق من ألم وعذاب .

وإذا كان الأقدمون قد فهموا التوحيد فى الحب على أنه " اقتصـــارهم على امرأة واحدة بعينها لا يعرف سواها طوال حياته " . (٢)

---

(١) مع الرواد . نعمان عاشور . ص ٤٣ - ٤٤ .
(٢) جميل بثينة أحمد الربيعى ص ٨٣ .

فقد تحول المفهوم عند " الرومانسيين " على ما يبدو إلى توحيد المثال .. وإن تعددت المرأة فى حياة العاشق " الرومانسى " ومن هنا كان صدورهم فى تجارب حبهم .

وقد وجدنا العلاقات العاطفية على تعددها لم تغير من طبيعة التجربة الباكية فى أشعارهم ، ولم تحقق - فى الوقت ذاته - أدنى إساءة إلى مذهب العفاف القائم على الطهر والسمو وعشق المثال ، فى معظم الأحيان .

فالتنقل فى الهوى عندهم لم يكن فى معظم أحواله إلا ثورة على عذر الحبيب الذى سلا وانصرف عن محبه بعد أن قدم له أسمى العواطف وأرق الأحاسيس .. فقد كان العابد المتبتل فى محراب الحب الذى كثيراً ما رتل على مسامعه كل آيات الولاء والوفاء .. ومع ذلك يتحول عنه ، ويدير ظهره إليه فلا يملك الشاعر إلا أن يثور على صنمه المعبود باحثاً عن مثله الأعلى فى كل ما يحقق لنفسه ولروحه الرواء والشفاء .

وما كان ذلك فى الواقع ، إلا ثورة مدفوعة بدافع التطلع إلى النموذج الأعلى المنشود فى المرأة ، كما تصورها الخيال الرومانسى .

المراجـــع

أولاً : الكتب

١- إبراهيم ناجى . د . على الفقى الهيئـــة المصريـــة العامـــة للكتـــاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٢- أبو القاسم الشابى ، شاعر الحـــب والثـــوره ، رجـــاء النقـــاش ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٣- أدباء الرومانتيكية الفرنسية ، د . محمد غلاب ، مكتبة نهضة مصـــر ، القاهرة ، بدون .

٤- الأدب المقارن د . حسن جاد ، دار الطباعة المحمديـــة - القـــاهرة ، ١٩٧٥ .

٥- الأدب والمجتمع ، محمد كمال الدين ، الدار القومية للطباعة والنشـــر ، القاهر ، بدون .

٦- تطور الشعر العربى الحديث فى مصر ، د . ماهر حســـن فـــهمى ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٧- تيارات من الشرق والغرب ، د . إبراهيم ســـلامة ، مكتبـــة نهضـــة مصر ، القاهرة ، بدون .

٨- جميل بثينة ، د . أحمد الربيعى ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون .

٩- الحب والكراهية ، د . أحمد الأهوانى ، دار المعـــارف ، القـــاهرة ، بدون.

١٠-الخلاصة فى مذاهب الأدب الغربى ، د . على جواد ، دار الجـــاحظ ، بغداد ، ١٩٨٣ .

١١-دراسات فى النقد الأدبى ، د . محمد عبد المنعم خفاجى ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، بدون .

١٢-دراسة الحب فى الأدب العربى ، د. مصطفـــى عبـــد الواحـــد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

١٣-الرومانتيكية ، د . محمد غنيمى هلال ، دار نهضة مصر ، القـــاهرة ، ١٩٧١ .

١٤-الشاعر الرومانسى أبو القاسم الشابى ، د . عبد الحفيظ محمد حســـن ، مطبعة التيسير ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

١٥-العشاق الثلاثة ، د . زكى مبارك ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون .

١٦-فى الأدب والنقد ، د . محمد مندور .

١٧-المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية د . نبيل راغـــب ، مكتبـــة نهضة مصر ، القاهرة ، بدون .

١٨-المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، د . شكرى عبـــاد ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٣ .

١٩-معالم النقد الأدبى ، د . عبد الرحمـــن عثمـــان ، مطبعـــة المدنـــى ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢٠-مع الرواد ، نعمان عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

٢١-نظرات فى الأدب ، د . عبد الرحمن عثمان ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

ثانياً : الدوريات

٢٢-الأهرام ١٩٨٠/٣/٣١ .

٢٣-الأهرام ١٩٨٧/٣/٢٠ .

٢٤-الكاتب مارس ١٩٧٧ .

٢٥-الهلال أغسطس ١٩٧٦ .

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	الصفحة
❁ مفـــــــــــهوم الرومانســـــــــــية .	١١٩
❁ الأديـــــــــــب الرومانســـــــــــى .	١٢٥
❁ الرؤيـــة الرومانســـية للحـــب والمـــرأة .	١٤٠
❁ المراجـــــــــــــــــــــــع .	١٥٠
❁ الفهـــــــــــــــــــــــرس .	١٥٣